حي على الفلاح

سعاد محمد

اســم الكتــاب : حي على الفـــلاح

التــأليـــــف : سعــاد محمـــد

إخـــراج فنـــي : هيـــام فهيـــم

الطبعـــــة : الأولـــــــى

رقــم الإيـــداع : 2019 / 14362

الترقيم الدولــي : 978-977-835-125-5

النــاشـــــر : دار زحمة كُتّاب للنشـــر والتوزيـــع

١٥ ش السباق – مـــول المريلانـد – مصر الجديـدة – مصـر

Facebook : دار زحمة كتاب للنشر

Email : za7ma-kotab@hotmail.com

Tel : 002 012051100596

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار زحمة كُتّاب للنشر

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة

بأي شكل من الأشكال

ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

حي على الفلاح

سعاد محمد

"حي على الفلاح"

عند طلوع الفجر الصادق،
وهو عبارة عن انشقاق الصبح جنوبًا وشمالًا، في جهة الشرق...
فيزداد نوره ليطلع الفجر،
فاصلًا الخيط الأبيض عن الخيط الأسود....[١]
حينها يؤذن المؤذن قائلًا "الله أكبر" ..
فيسعى المصلون لأداء صلاة الفجر،
سواءً في المسجد، أو في البيت.
نداءً وراء نداء، وصلاة تليها صلاة.
كلمات عذبة تُطرب الأذن حين نسمعها، وتولج الفؤاد.

---

١ "نور على الدرب، الإمام ابن باز رحمه الله".

إن الله يناديا، يحثُنا على الوقوف بين يديه.
فنتوضأ لنطهِر أبداننا،
ونتجرد من كل مُتعلقاتنا الدُنيوية في تلك اللحظات العظيمة.

ألم تتساءل يومًا....
من أين جاءت فكرة الآذان...؟
تُرى..... أكان وحيًا...؟ أم كان أمرًا من الله.
كان المسلمون في بداية الإسلام، يتوجهون إلى بيت الله،
بلا آذان أو نداء.
وعندما شقَّ عليهم أمر جمع المسلمين لأداء الصلاة،
اقترح بعضهم، أن يتخذوا ناقوسًا.....
ولكن الناقوس هو من أمر النصارى.
بينما اقترح البعض الآخر أن يتخذوا بوقًا....
ولكن البوق هو من أمر اليهود.
فاقترح عمر بن الخطاب ﷺ ، أن يُبعث برجل،
لينادي بالصلاة.

فوافق سيدنا محمد ﷺ ووكَّل (بلال) لكي ينادي بالصلاة.

وذات ليلة...

رأى الصحابي الجليل "عبد الله بن زيد" في منامه.....

رجلًا عليه ثوبين أخضرين، يحملُ ناقوسًا،

فقال له الصحابي "عبد الله بن زيد":

- (يا عبد الله.... أتبيع الناقوس...؟

أجابه ذلك الرجل:- (وما تصنع به...؟)

قال الصحابي:- (أنادي به إلى الصلاة)

قال الرجل:- (أفلا أدلك على خير من ذلك...)

قال الصحابي:- (وما هو...)

قال الرجل:- (الله أكبر... الله أكبر

الله أكبر.... الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله

حيَّ على الصلاة، حيَّ على الصلاة
حيَّ على الفلاح، حيَّ على الفلاح
الله أكبر، الله أكبر ... لا إله إلا الله.....[١]
فأسرع الصحابي الجليل إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم،
وأخبره عن تلك الرؤية العظيمة....
فقال النبي صلى الله عليه وسلم، إنها رؤية حق.
وطلب منه أن يُلقها على بلال، لأنه أندى صوتًا.

فلما سمع عمر بن الخطاب ﷺ صوت بلال وهو يؤذن،
خرج يجر رداءه وهو يقول:
(يارسول الله.... والذي بعثك بالحق،
لقد رأيتُ مثل ما رأى...)
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:- (فالله الحمد...)[٢].

---

١ رواه "أبو داود... وصححه الألباني".
٢ رواه أحمد (١٥٨٨١) والترمذي (١٧٤)، وأبو داود (٤٢١)، وابن ماجة (٦٩٨).

نعم الآذان، التي يُستطاب لها القلوب خمس مرات، كل يوم وليلة.
أرددها في سمعي وعلى لساني، حين أسمعها، فلا أقوى أن أتغافل عن هذه الكلمات العظيمة.....

" حيَّ على الفلاح".....
يقشعر بدني لسماع كلمة (الفلاح).....
ففي هذه الكلمة وحدها،
يحثني الله بل ويدفعني، أن أُهم وأقبل على الفلاح والنجاح.....

تُرى..... ما الفلاح....
الفلاح بمفهومه اللغوي.....
هو النجاح والصلاح.....
ولكن هل يُدرك البشر معنى الفلاح والنجاح.....؟

هناك إنسان يُدرك ماهية الفلاح بمفهومه الخاص،
مُدعمًا لذلك، بكل الأساليب الخاصة به،
التي تناسب حياته وتُرضيه،
فيَعْتَبر ما وصل إليه هو النجاح المنشود.....
أيًا كان هذا النجاح، موافقًا للتشريع السماوي أم لا.
وهناك آخر يُخْضِع كل أفعاله وآمانيه وأهدافه في الحياة،
بل وتصرفاته التي توصله إلى النجاح،
وفقًا لقوانين التشريعات السماوية...
وذلك بعد السعي المضني والعمل الدؤوب.

أشعر بل أُؤمنُ إيمانًا عميقًا،
أن هناك صلة وثيقة بين الروحانيات العالية التي يصل لها العبد
وبين الفلاح في الدنيا والآخرة....
وقد مررتُ في حياتي بقصص عديدة،
وحواديت ليس لها مثيل.....

تلك الحواديت، تُثبت أن هؤلاء البسطاء في الحياة،
ولا أقصد بالبسطاء هنا الفقراء.... حاشى لله.....
بل أقصد أولئك الذين ينعمون في الحياة بعيشة بسيطة،
غير معقدة....
ينظرون إلى الحياة، نظرة العابر لها،
ليس المتشبث بتفاصيلها المُبهرة.
أولئك البسطاء، هم من بلغوا الفلاح حقًا....
رَغِبتُ أن أقصُّ عليكم،
بعض الحواديت الصغيرة لأناس عشت معهم،
وعرفتهم في حياتي.....
أناس حقيقيون، وحواديت واقعية، قد حدثت بالفعل.....
كل حدوتة تحمل في خفاياها معنى الفلاح....

❁ ❁

(الحدوتة الأولى)
شبيهة أم كلثوم

عندما نقابل الحرمان بالعطاء.....
نتفاجأ بجود عطاء الله.....
وعندما نسكن ونصبر بإصرار.....
ننال الفلاح في الدنيا، قبل الآخرة.....

فوق "الطبلية"، وهي مائدة دائرية صغيرة، بأقدام قصيرة، نلتف حولها لتناول "الكشك" وهي أكلة مصرية في الغالب من اخترعها هم أهل الصعيد، على أغلب الظن، أو هكذا ثبت في ذهني.....

لأن ما صنعته لنا هي سيدة صعيدية، كانت تسكن معنا في نفس العقار، في الطابق الثاني، في ذلك البيت القديم المزدحم بالسكان.
ألتهمُ "الكشك" أنا وأختي الكبيرة كالوحوش، فقد أحببنا كل ما تقدمه لنا "أم حمدية" من طعام، ولا نقوى على مقاومته.

كانت سيدة طيبة القلب، عالية المقام، أشبه بأم كلثوم في شبابها. ناديناها أنا وأختي ب"ماما حمدية".... هكذا أمرتنا أمنا أن نناديها.. لأنها لم تنجب، فكنا لها صغارًا، وكانت لنا أمًا.

أتذكَّر سجادة الصلاة، التي كانت تبسطها دائمًا على الأرض، في غرفة الضيوف، تلك السجادة التي بُليت من كثرة السجود... وذلك الوشاح الأبيض الناصع، المُلقى على الكنبة، والتي كانت ترتديه في صلاتها.

زوجها الطيب "الأسطى محمد"، كان دائم المزاح والمرح، خفيف الظل.... ولأننا كنا صغارًا، لقبناه "بابا الأسطى".

كان ذلك البيت نظيفًا وهادئًا، يتسع لأهل العقار كله، لشرب الشاي والقهوة، أثناء مشاهدة مسلسل الساعة السابعة والنصف، الذي كان يسبق نشرة التاسعة مباشرةً.

بكل بساطة، لم يكن هناك تلفاز آخر مُلون، لدى باقي السكان. وذلك كان أمرًا طبيعيًّا في أوائل الثمانينيات، بالنسبة للأسر المتوسطة الدخل. لم تضجر تلك السيدة، أو تمل من الترحاب بالجيران، أو تبدي ضيقها من وجودهم المتكرر.

كنتُ أنا وأختي نتسلل من شقتنا، في أغلب الأوقات، لننزل إلى شقتهم، لنلهو ونمرح معهم. تلك الحياة البسيطة، التي لا تحمل الكثير من التفاصيل سوى المعاملة الحسنة، والعلاقات الطيبة، والتفاؤل برغم البلاء، فقد حُرموا نعمة الإنجاب.

وواجهوا ذلك الحرمان، بفتح باب شقتهم للجميع، فكانت تلك الشقة، هي الأفضل في العقار كله، الملاذ الممتع لكل الأطفال، ومنهم أنا وأختي بالطبع

ثم دارت الأيام والسنون وانتقلنا أنا وأسرتي لبيتنا الجديد، لم يكن ذلك بالأمر السهل على قلبي.
فكنتُ دائمًا أميل إلى حياة البسطاء.....
كنا نتزاور على فترات بعيدة، لا نعلم من أخبارهم الكثير.

وتُوفي "بابا الأسطى"، وطلب أصحاب العقار من "ماما حمدية" أن تبدل شقتها في الدور الثاني، بشقة أخرى في الطابق الأرضي. لكي يتزوج ابنهم الكبير، فهو لا يملك المال الوفير ليستأجر شقة، كانت شقة الدور الأرضي، صغيرة جدًا غرفة واحدة، وصالة ضيقة لا تكفي سوى لأريكة واحدة ومنضدة طعام.

حزنتُ كثيرًا، ذهبتُ إليها مُسرعة، طلبتُ منها بإلحاح أن ترفض ذلك الأمر وتظل في شقتها الكبيرة. تلك الشقة، التي كانت ملجأًا للجميع، لم أكن أستوعب أنها ستتلمم سجادتها البالية، التي كانت تُبسط في غرفة الضيوف، وكنتُ أحبُ الجلوس فوقها.

لم أقوى على استيعاب أن أفقد مشهد الوشاح الأبيض الجميل، المُلقى على الكنبة.
إلاَّ أنها فاجئتني بردها....

-(تُوفي زوجي، وليس لي أحد هنا من أقاربي.... فكل أقاربي وأهلي في الصعيد.... وأصحاب العقار هم أهلي وأنسي هنا، فهم جيراني..... ومن يراعوني حقًا، ويتعايشون معي..... اطمئني فأنا راضية...).

وبالرغم من عدم قناعتي بما حدث، خاصة بعد أن قمتُ بزيارتها مرارًا في تلك الشقة الصغيرة الضيقة، فإن الأيام أثبتت لي بعد ذلك فطنتها وحكمتها.....

كان معاشها من زوجها صغيرًا بالكاد يكفيها، هكذا ظننت.. ومع ذلك، إذا دخلتُ شقتها وجدتُ كل ما طاب ولذَّ من الطعام، التي تُهديكَ إياه.

وكأنت البركة تسير معها أينما سارت...
كانت تدخر النقود مع جارتها شهرًا بعد شهر،فأنعم الله عليها بالعمرة في رمضان، وهناك في مكة، أقامت حتى موعد الحج، وأدت الفريضة.

واقتسمت معاشها بعد ذلك، نصفين بينها وبين أولاد أخيها المتوفى في الصعيد، وأولت هذه المهمة إلى شقيقتي الكبرى، التي كان عليها كل شهر إرسال تلك الحوالة البريدية لهم. وتحزن بشدة بالغة، إذا تقاعست أختي عن مهمتها تلك.

تُرى هل عرفت "ماما حمدية" معنى الفلاح...؟، هل آمنت به....؟

كان يبدوا ذلك واضحًا في كل أفعالها، بالرغم من أنها لا تعرف القراءة والكتابة.

نصحتها إحدى جاراتها بأن تحتاط لنفسها ببعض المال، تدخره لمرضها في شيخوختها. كان ردها لا يزال محفورًا في ذهني حتى يومنا هذا حين قالت:-

- ((أعين فلوس للمرض! أعوذ بالله،

أديها لربنا، هو سبحانه، إللي بيشيل المرض)).

* نعم، إنه الاختيار الصائب ..

لدرب من دروب الفلاح قولًا وفعلًا.. *

تمر السنون، وما زالت تلك الكلمات عالقة في عقلي لم ولن أنساها، ومنذ ثماني سنوات، وبعد صيامها لشهر رمضان كاملًا،وأتبعتهم بالست البيض، وهي في سن الخامسة والسبعين. وبعد آخر يوم في صيام الأيام البيض من شوال، تتقيأ دمًا.

نعم، إنه ذلك المرض اللعين "فيروس c"، الذي قضى على كثير من أبناء ذلك الجيل. لم يبدُ عليها أعراض هذا المرض بكآبته البشعة سوى يومين فقط، عندما أبلغهم الطبيب بأنها في المرحلة الأخيرة. تعجب الطبيب، بأنها لم تشكُ ذلك المرض قط، وكيف أنها لم تعاني ما كان يعانيه المرضى من ألم. فقد كانت تصوم، وتصلي، وتواظب على دروس العلم في الجامع في أواخر أيامها، كالشباب، بل أفضل منهم.

إنها مقولتها التي آمنت بها:-

(أعين فلوس للمرض! أعوذ بالله ...

أديها لربنا، هو إللي بيشيل المرض).

إنه الفلاح، التي اختارته بنفسها، وسلكت كل دروبه في حياتها. بل وآمنت به، وأصرت عليه، برغم من انتقاض بعض الناس لها ولفكرها..

ولكنها في النهاية لبت نداء الآذان "حيَّ على الفلاح".
ففازت به في دنياها وأُخراها.

❁ ❁

(الحدوتة الثانية)

بلهاء فطنة جميلة

ربما تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.....
ولكن التعلق بأمل النجاة.....
هو الحبل المتين، الذي يجب أن نتشبث به.....
وأعظم تعلق..... هو التعلق بقدرة الله.....

فتاة جميلة الوجه، هادئة الطباع، ساكنة الملامح، ابنة صاحب ذلك العقار القديم الذي كنا نقطنه أنا وأسرتي... تتحمل مسؤولياتها كاملة من العمل اليومي، رغم صغر سنها، أتذكرها وهي واقفة في محل البقالة أسفل العقار.

طفلة لا يزيد عمرها عن ثماني سنوات، واعية، شاخصة البصر لكل ما حولها من بضائع، سألتها ذات يوم، وكنت أصغرها عامين من العمر...

ـ(لما لا تأخذين من الحلوى ما تشتهين!)

ـ(حرامٌ، أنا لا آخذ شيئًا، إلا ما تمنحه أمي لي)

فلقبتها حينئذ بالبلهاء....

لم أكن أعلم أن منى تعي ما تقوله، وما تفعله، ربما كانت طفلة صغيرة، ولكن عقلها وأفكارها متينة.....

هناك اعتناق داخلي بمسلمات.....

تلك المسلمات، التي ستقودها إلى الفلاح المنشود، فيما بعد.

أتذكر تلك الأيام الجميلة في رمضان، خاصة بعد العصر،حين تتجمل الشوارع والمقاهي في الأحياء الشعبية، وتستعد لمدفع الإفطار. وعربة العم حسن الزجاجية، المملوأة بالأطباق الصغيرة من المهلبية، والأرز باللبن، كنتُ أنا وأختي نشتهي الشراء منه قبل المغرب، والأطباق لا تزال ساخنة وشهية.

وكنتُ لا أزال في السادسة من عمري، لم أعِ معنى الصيام قط. وكانت منى، تلك الفتاة الجميلة في الثامنة من عمرها، تصوم رمضان كالكبار. كانت منى تشتهي تلك الأطباق الساخنة أحيانًا، فتجئ معنا، نشتري أنا وأختي، أمَّا هي فكانت تنظر إلى الناس من حولها، وكيف ينظرون لها، وهي تأكل قبل مدفع الإفطار.

كنتُ أنظرُ إلى عينيها وهي زائغة من الخجل...

ـ(لماذا لا تأكلين معنا يا منى؟)

ـ(نأكل والناس صائمون، عيبٌ علينا)

وتتركنا وتركض عائدة إلى البيت.

هل كانت منى تعي معنى الفلاح، في تلك اللحظة؟
ربما كانت تلك البدايات لديها.... ثم انتقلنا إلى البيت الجديد، وتركنا ذلك العقار، وانقطعت الأخبار عنها. ثم شاهدتها صدفة في الشارع، وهي ذاهبة إلى المسجد، لتصلي التراويح، بعد أن بلغت الثامنة عشرة ربيعًا.
سألتها: (ما هي صلاة التراويح؟ وكيف أصليها؟ وما فائدتها؟)
ولكنها أجابتني بسطور مُجملة، ومختصرة، ولكنها تحمل معنى، لم ولن أنساه.
ـ(إنها صلاة، تُشعرني بالسعادة، لا يحس ذلك ولا يستشعره، إلاَّ من داوم عليها في المسجد)
وكانت تلك بدايتي أنا مع صلاة التراويح، ومنذ ذلك الوقت حرصتُ كل رمضان، أن أصليها في المسجد....
رغبت في البحث عن السعادة، التي أوحت لي بها منى. بل كل عام، أحاول أن أستنفر همة كل من حولي، للذهاب إلى المسجد، لأداء صلاة التراويح، لعلهم يستشعرون شيئًا من تلك السعادة.

تزوجت منى بعد وفاة أمها، بسنوات قليلة.
حضرتُ زفافها، وقمتُ بزيارتها في بيتها الجديد لأهنئها على الزواج.
رأيتُ في عينيها الحب الشديد لزوجها، فقد أحبته بكل كيانها، وكرست حياتها بعد ذلك لرضاه وخدمته، بشغف ولهفة.
رأيتُ في عينيها ضوءًا لامعًا، حين قابلتها صدفة في تلك السنوات.
ضوء العيون الممزوجة بالعشق والمرح، بل والرغبة في احتضان العالم بأسره، كأنها امتلكت الدنيا بين يديها.

توالت السنون، ولم تنجب منى. وبدأت زياراتها المتكررة لطبيب النساء. هناك مشكلة طبية، تعانيها منى، وتمنعها من الإنجاب وبعد عمليتين جراحيتين، باءت المحاولات بالفشل.
فقررت الذهاب إلى العمرة، لكي تغتسل من ماء زمزم.
استشعرت في أعماقها أن زوجها يرغب في الزواج من أخرى، من أجل الإنجاب.

فمن سيرث تجارته..؟
ولمن سيترك كل هذا المال...؟

فذهبت إلى البيت الحرام، وتعلقت بأستار الكعبة، لكي تشكي همها إلى الله عز وجل، سائلة ربها العون فهو وحده، الملاذ الأول والأخير.
بكت واغتسلت بدموعها، ووقفت أمام خالقها ذليلة، راضية، راجية نعمته.

عادت منى إلى القاهرة، واطمأنت في بيتها إلى قدر الله المحتوم.
مر شهران فقط، لتكتشف أمر حملها، لم تشك للحظة أن الله سيخذلها، فقد كانت شديدة اليقين بأن الله ناصرها.

إنه أسرار الفلاح، التي لا يعيها سوى القليل من العباد.

❁ ❁

لم تنتهِ الحدوتة قط.....
بالطبع كانت سعادتها بطفلتها، لا تُوصف....
ولكن بعد ثلاثة أعوام.. تكتشف أن زوجها لن يكتفي بابنته الوحيدة، فقد قرر الزواج لإنجاب الولد.

لم تكترث منى لما كان ينويه زوجها، فقد كانت شاكرة لله وعطيته لها حامدة له كلما وقعت عيناها على ابنتها الصغيرة، وهي تلعب حولها.

كلما احتضنتها، كلما لعبت معها، كلما نادتها "يا أمي".
فقد أعطاها ابنتها التي ملأت عليها الدنيا.

عندما قابلتها، وقصت علي ما ينوي زوجها فعله....
ـ(لماذا لا تصرخين يا منى..؟ لماذا لا تبكين...؟ فالأمر مؤلم جدًا، أنا أبكي لما يحدث لكِ، وأتألم من أجلكِ).

لكنها تبسمت في وجهي، ومسحت دموعي، التي سقطت على خديَّ، بيديها الجميلتين، قائلة لي:

- (لا تبكِ، أنا راضية، صابرة، محتسبة كل شيء لله ولا تنسي، أن الله استجاب لدعائي، ووهبني ابنتي الجميلة، التي سأمنحها كل حياتي).

-(هل ستطلبين الطلاق يا منى...؟)

-(لا، ولمَا أفعل ذلك....! حقيقة، هو يحبني، ويعاملني بلطف شديد، فأنا أحبه، هو أبو ابنتي الوحيدة..... سأتعايش يا صديقتي، لا تقلقي..... سأتعايش...).

دعوتُ لها بالصبر، وتمنيتُ لها السعادة.

تزوج زوجها بالفعل، فتاة تصغرها بسنوات فأصبحت المقارنة مُوجعة بين منى، وبين العروس الجديد.

مررتُ عليها بعد كل تلك الأحداث لأطمئن عليها، لأرى ملامح وجهها قد تحولت إلى وجه عبوس. لا يعلوه أي مشاعر، سوى روح قلب موجوع.

قست عليه الأيام، ولا منقذ لها إلا الله.

امتازت منى بالصبر واليقين بنصر الله، وبالفعل قررت الذهاب إلى الحج، مع زوجها والتعلق بأستار الكعبة من جديد، فهو اللقاء الموعود.
إنه الملجأ، إيمانها ويقينها أكبر مما يتصوره أحد.

عادت منى من فريضة الحج، راضية، أكثر هدوءً.
سمعت تهنئة حماتها لزوجها، فور عودته باكتشاف حمل عروسه الجديد.
فالجميع ينتظر المولود الجديد، ولكن فرحتها بفريضة الحج، وإيمانها الشديد، بأن الله سيجبرها، كانت أقوى من سماع تلك الأخبار.

ولم يمر سوى ثلاثة أشهر،حتى شعرت منى بأن هناك جنين يتحرك في أحشائها... يا الله! يا الله! إنه الوهاب، الرزاق، يهب لمن يشاء....
أنجبت الزوجة الثانية بنتًا جميلة.

أما منى فقد أنجبت بعدها بأربعة أشهر، الولد الذي تمناه الأب.

منحها الله ما كانت تتمناه...

إنه اليقين بإجابة الدعاء،

فهي لا تمل أبدًا من الاستغفار والرجاء.

لا تمل الصبر، والتعلق بالله...

إنه الفلاح....

فمن رغب الفلاح وسعى له ينله في الدنيا قبل الآخرة.

❁ ❁

(الحدوتة الثالثة)

طاقة الجامع

نظرة.....

فحب.....

فلقاء.....

فصراع طويل..... من أجل بقاء الحب....

هناك، في مكان عملي، أرى ضحى وقد وقفت شاردة الذهن، لا أعلم، لما تقف هكذا أغلب الوقت.... تُرى، ما وراؤها....؟

لم أكن في بداية الأمر، أرتاح في التعامل معها، ولكن وجدتُ نفسي أراقبها من بعيد.

يومًا تلو الآخر، استشعرت الراحة في كلامها، كنتُ دائمًا أعتقد أنها تحمل قصة طويلة في طيات وجدانها.

ساقني الفضول للحديث معها، ذات يوم.

أخبرتها حقيقة ما بداخلي من شعور، وأني أعتقد أنها عكس ما تبدي، وأنا أشعر بارتياح في التعامل معها الآن. فكان واجب الاعتذار لها، شيئًا حتميًّا عليَّ فعله.

فوجدتها بالفعل، تُبدي كل الترحاب بالحديث معي، بل كأنها وجدت المتنفس ليطفو ما داخلها من سطور وعبارات. كانت الدموع تتساقط على وجهها كالسيل المنهمر لا أستطيع أن أوقفه،

حاولت تهدئتها، فأنا أعلم خبر وفاة أبيها منذ ثلاثة أشهر، ربما كانت تحن إلى احتضانه.

أبرزت لي صورة من محفظتها، قبلت الصورة، واحتضنتها، قائلة لي:

- أترين هذا الرجل، إنه أبي "رحمه الله"، فهو حكاية، لن يتكرر مثله الكثير، لن تصدقي ما سأرويه لكِ.

عم سيد، لم يكن بالرجل العادي ....

فقاطعتها في كلامها، وقمت بعمل كوبين من الشاي، وابتعدنا عن زملائنا قليلًا، لتبدأ ضحى حكايتها مع أبيها العم سيد.

-كان أبي، عم سيد يهوى العمل في صيانة المساجد وهو شاب صغير، دون أجر، يعتبرها صدقة جارية، شكرًا لله على الصحة والعافية،رغم أنه لم يكن ملتزمًا في صلاته.

وأثناء أعمال الصيانة للمسجد، وقعت عينا عم سيد على فتاة، تجلس فوق سطح البيت، المقابل للمسجد. فتاة جميلة الوجه، بشوشة، تنظر بتمعن عجيب داخل المسجد.
في بداية الأمر، ظن سيد أنها تنظر إليه، ولكن عندما أشار لها بيديه، تأكد أنها تنظر إلى المصلين. فأسرع سيد، وسأل شيخ الجامع عن هذه الفتاة، وما حكايتها!

فأجابه أنها فتاة نصرانية، تحب سماع الآذان، وتحب أن ترى صلاة المسلمين.

كانت لتلك الفتاة النصرانية، حكاية أخرى.....
لم يكن لأم تلك الفتاة النصرانية حظًا، في أن يعيش أبناؤها، فذهبت إلى دجالة، تستشيرها في ذلك.

فأخبرتها الدجالة، بأنها عندما تلد مولودها الجديد، تسرع لتمرره من طاقة الجامع سبع مرات.

"طاقة الجامع" هو شباك طويل رفيع في جدار المسجد، هكذا كان يسمونه.

وبالفعل عندما وضعت طفلتها، أسرعت وأعطتها لجارتها المسلمة، لتدخلها الجامع وتمررها لها من الطاقة، سبع مرات. كما أمرتها الدجالة، بأن تُخفيها عن أعين الناس، خافت الأم على ابنتها الوحيدة الباقية لها، ولم تستخرج لها أي شهادة ميلاد.

وعاشت الفتاة، حتى بلغت السادسة عشرة ربيعًا، وكانت دائمًا تنظر، من فوق سطح البيت على المصلين. كانت هي تلك الفتاة، التي شاهدها سيد، وأوغلت في قلبه سهم الهوى.

فظل سيد يتردد على المسجد كل يوم، ليقوم بأعمال الصيانة من ناحية ومن ناحية أخرى، يرى فتاته الجميلة التي وقع في حبها.

لاحظت الفتاة نظرات سيد، ووقعت في حبه، على استحياء منها. قرر سيد أن يتزوجها، وبالرغم من صعوبة ما واجهاه، نظراً لاختلاف الدين بين العائلتين.

وبعد صراعات طويلة، استطاعا الزواج....
لم يكن ذلك بالأمر السهل قط، فقد دفعا فاتورة ذلك....
فقد قاطعهم كل أقاربهم، فعاشا فرادى دون أهل أو سند.

وقفت الفتاة النصرانية، لتسأل زوجها أن يعلمها صلاة المسلمين.
صمت سيد طويلًا، وقف حائرًا.. متسائلًا....
كيف أعلمها الصلاة..... أنا لم أتعلمها جيدًا.....

بكى بكاءً شديدًا، وسأل نفسه كيف وصلتُ إلى هذا العمر وأنا لا أعرف الصلاة، ولا أعرف الكثير عن أمور ديني. فأمسك يدها بشدة، وأسرع يجر نفسه قبلها، واتجه إلى أقرب مسجد، وسأل الإمام أن يعلمهما الاثنين معًا.

مرت السنون وراء السنين.....
وكانت الدنيا تتغير لهما في أمواج تلك الأيام.....
فقد تعلما، بل حفظا القرآن معًا.....
نعم، ختما القرآن معًا، وعلموه لأولادهما الخمسة.

بل وأكثر من ذلك، فقد تعلم الحاج سيد كل أمور الفقه الشرعي، بجانب التجارة التي كان يشتغل بها، بل وعُرف بعد ذلك "الشيخ سيد"، فقد قام بتحفيظ الكثير والكثير من الناس كتاب الله، وعلمهم دينهم.

تبسمت ضحى، فقد كانت فخورة بأبيها الشيخ سيد، وأمها التي كافحت معه، وتعلمت، ولم تتوانى وتتقاعس مثل الكثيرين.

وقفتُ صامتة وكأن على رأسي الطير.... فقد وُلدنا مسلمين والقرآن في بيوتنا، بل وعلمنا أباؤنا كل شيء في الدين، ودفعونا إليه دفعًا... كل شيء جاءنا سهلًا، دون تعب..

أما الشيخ سيد وزوجته، كافحا بكدٍ وتعبٍ مضنٍ، ليس بالسهل ليحصلا على ما وصلا إليه... هذا الرجل، عرف معنى الفلاح، وأيقن به بداخله.. اختار الطريق وسار على دربه.

تتساءل ضحى:

- (تُرى... هل أستطيع أن أكون مثل أبي رحمه الله...

هل سأواجه الحياة وأفهم الدرب مثله...

أم أنه كان من القليلين الذين نجحوا في إدراك الفلاح

وفهمه في الدنيا والآخرة...

❁ ❁

(الحدوتة الرابعة)

إصرار عبد العليم

عندما نؤمن أن الأرزاق بيد الله.....
لا نخشى شيئًا.....
حتمًا سيأتي الرزق، فهو مكتوب.....

أذن المؤذن لأداء صلاة الفجر...
واستيقظ الأستاذ "عبد العليم" من نومه ليصلي...

وكعادته اليومية يساعد زوجته في إيقاظ أولاده كل واحد منهم على حدى، ليجهزوا ويتهيأ للذهاب إلى مدارسهم وجامعاتهم، فكان عنده من الأولاد خمسة، أربع بنات وصبي واحد.

كان الأب المحب لأبنائه، الصارم في أقواله، وكان يعيش في كنف المبادئ التي يعتبرها البعض قد اندثرت من الوجود.

عندما قررت الزوجة السفر للخارج، في عقد عمل، لتحسين أحوالهم المادية. فوجئت الزوجة بقرار لجنة السفر، بأنها ستسافر وحدها دون زوجها أو أولادها.

فدخل الأستاذ "عبد العليم" إلى اللجنة، وفاجأهم بكلامه، فقد أثبت لهم بالبراهين والأدلة، أن قرارهم خاطئ بالنسبة لامرأة متزوجة، وأنه يُفضل التخلي عن عقد العمل إذا كان البديل هو سفرها دون أولادها وزوجها.

وأطال في الحديث بجرأة وثقة في الله، بأن الرزق أينما كنا سيأتي لا محالة. وكانت زوجته هي السيدة الوحيدة التي اصطحبت زوجها وأولادها معها، بعد أن غيرت اللجنة قرارها بشكل استثنائي. سافروا معًا إلى الخارج، حيث كان وجه من حولهم، يعلوه الاستغراب.

كيف استطاع الأستاذ "عبد العليم" إقناع اللجنة برأيه...؟
هم لا يعلمون أنه لم يتعلق بشيء سوى ما آمن به، وأصرَّ عليه، خاصة أنه ردَّ كل شيء لله، وقدره.

بعد مرور أربع سنوات.....
عادوا إلى القاهرة، بأمان الله، وكان الأستاذ "عبد العليم" لا يزال يعيش في جعبة تلك المبادئ، فكان ذلك الرجل الذي يستقطع من دخله الشهري مبلغًا من المال، ويزيده من بعض الأصدقاء، ممن يحبون التصدق على الفقراء. مواظبًا على توزيع تلك الأظرف المغلقة، وما تحويه من مال شهري على بعض الأسر اليتيمة، أو المعدومة.

كان زملاؤه أحيانًا ينتقضون تصرفاته، في عدم اكتنازه بعض المال للظروف الطارئة في حياته. إلا أن رده الدائم، كان واعظًا في حد ذاته:
-المال، مال الله يؤتيه من يشاء.

هل أيقن الأستاذ "عبد العليم"، درب الفلاح....
هل آمن به....
نعم إنه الطريق، الذي اختاره بنفسه،
وفرضه على من حوله، باحترام.

وعندما كبرت بناته وأقبلن على الزواج، كان ذلك الرجل هو الوحيد في عائلته، بل والوحيد في الحي كله، الذي زوَّج بناته، دون إقامة فرح كبير كما يفعل الآخرون.

اكتفى بالوليمة (وليمة العرس) التي تقام في ليلة الحناء، ولم يفرض على أزواج بناته مجوهرات (الشبكة) أو مفروشات معينة، قائلًا لهم:

- (كل رجل ينشئ بيته، بما يطيق، كل واحد منكم أدرى بما يحتاجه بيته، وبما يسعه، وعلى قدر ما تملك انفق...)

أما أنا فقد ربيتُ بناتي تربية صالحة، وأصررتُ على تعليمهم أفضل تعليم.... أما ما يفعله الناس من حولي، في هذه الأيام، لا أقبله... بناتي لسن بضاعة، تُباع وتُشترى.

ولسنا هنا على مائدة المناقشات، لكي نحدد من سيشتري هذا، ومن سيشتري ذاك. فنحن جالسون للاتفاق على بناء أسرة، وليس أنشاء مصنع. جالسون هنا للاتفاق على المعاهدات الروحية، بحفظ كل واحد منهم للآخر.

كان الجميع يستخفون بأقواله في بداية الأمر، يعتقدون أن أفكاره خارج منطق هذا الزمان. وتوقع أصدقاؤه بأن بناته سيتأخرن في الزواج، حتى وإن فلحت مرة مع إحداهن، هذه المبادئ لن تفلح مع الأخريات.

ولكن من آمن بشيء وعاش على ذلك الإيمان مُرابطًا....
ينل ما تمنى في آخر المطاف...

فقد تزوجت البنات الأربعة، زيجات طيبة، وبالشكل الذي أراده الأستاذ "عبد العليم". حتى ابنه الوحيد، قام ببناء نفسه بنفسه، لم يعتمد على أبيه في أي من نفقات الزواج.

زوج الرجل الطيب أبناؤه الخمسة بنفس المبدأ، وبعدها بعامين فقط توفي الأستاذ "عبد العليم" بعد مرضه، هذا المرض لم يدم طويلًا، فقد هون الله عليه نفقات العلاج..

حزن الجميع لفراقه، منهم من آمن بأفكاره، ومنهم من لم يؤمن. ولكن الحزن الحقيقي الذي تبقى، هو حزن تلك الأسر الفقيرة، التي فقدت الأظرف الشهرية، التي اعتادت أن تأتيها أول كل شهر.

يُذكِّرني الأستاذ "عبد العليم" بمقولة عظيمة....

(أحيانًا يموت إنسان، فتستريح منه الدنيا والعباد.....
وأحيانًا يموت آخر فتحزن عليه الدنيا وخلائقها....)

رحمك الله يا أستاذ "عبد العليم".

❁ ❁

(الحدوتة الخامسة)

ما سر انتحاره...؟

قد تعيش عمرًا.....
وأنت لا تعلم في أي درب تسير.....
وتظن أنك عثرت عليه.....
ولكنك تائه.....

في تلك الأيام الجميلة، عندما كنا في الجامعة، كنا نسمع عن أحد الشباب، وقد غرَّه الشيطان، فكان يصول ويجول في الذنوب، كان تامر شابًا مستهترًا، معروفًا بإدمان المخدرات، والكحول، والتواجد في الأماكن المشبوهة.

وعندما كان أحدهم ينطق باسمه على لسانه، يشمئز الآخرون، وكأن اسمه يحوي دلالات الانفلات والذنوب.

ثم تُوفي أحد أصدقائه في حادث أليم، وانقطعت أخباره سنوات.... ثم ظهر في الحي لأرى رجلًا آخر، اختلفت ملامحه بل واختلفت ملابسه أيضًا... فأصبح قريب الشبه بشيوخ المساجد، الملابس البيضاء الناصعة، والوجه البشوش المميز من كثرة الصلاة، والذقن الطويلة المشذبة،

في البداية سخر منه أغلب الناس، ظانين أنه مجرد رداء ومظهر شكلي لا أكثر. ولكني دائمًا كنتُ أشعر أنه تغير حقيقي. لأن أفعاله كانت طيبة... فكان دائم الإسراع للهفة المحتاج ومعاونة الفقراء على قدر الإمكان.

أرى في عيونكم جميعًا الآن تلك النظرة التي تحمل كل معاني التوقعات بالنهاية، الممزوجة بالملل والرتابة... ولكن الأحداث لم تكن تسير وفقًا للتجارب المتوقعة.

ففي أحد الأيام، ودون سابق إنذار... فوجئ أهل الحي بانتحار أحد الرجال من أعلى المبنى، ملأت الأرض بدماء تامر، التي انتشرت تحت أرجل المتفرجين، وأفزعت الجميع.

أدمع وأبكي لأيام على نهايته، كما بكى وترحم عليه الجميع... ولكن لا يزال هذا السؤال يراودني، ويشغل بالي طوال الوقت....

كيف لرجل عرف طريق الحق واختار الصراط المستقيم وحاول التمسك بطرف خيط الفلاح، أن تكون تلك نهايته..؟

هناك شيء خاطئ..... أو حلقة مفقودة في تلك الحكاية.... فلا بد أن تكون هناك قصص وحواديت أخرى تخللت حياته، قبل إسدال ستار النهاية له على مسرح الحياة...

بالفعل، بدأت أرتدي ذي المخبر السري، لأفتش وراء سبب انتحاره، ليس فضولًا، ولكن لأفهم.....

بدأت أسأل من أعرفه من أصدقائه وأقاربه وجيرانه.... طرحتُ عليهم سؤالًا واحدًا فقط....
- لماذا انتحر تامر، في اعتقادك....؟

أجابني أحد الأصدقاء.... أنه كان يعاني بعض الأزمات المالية، خاصة بعد أن أنجب أولاده، ولم يكن قادرًا على تلبية احتياجاتهم.

ولكن حدسي البوليسي، لم يؤيد ذلك قط....
خاصة أنه كان يعمل هو وزوجته معًا في نفس مجال العمل، ولم تشكُ زوجته قط من ضيق الحال قبل ذلك.

أجابني أحد جيرانه... أنه كان يُعتقل كثيرًا، ربما لبعض أفكاره السياسية، فهي تعتقد أنه كان يتناول الحبوب المخدرة، التي سببت له في الهلوسة ثم الانتحار.

ولكني أستبعد هذه الإجابة تمامًا.... فمن عرف طريق الصلاة، والخوف من الله، بعد تجربته الشبابية الأولى مع الانفلات، لا يعود إليها مرة أخرى.

بينما قالت أحد زميلاته في العمل، إنه كان دائم الجلوس بمفرده،
لا يحب الاختلاط بأحد، قليل الكلام، فهي سمعت أنه كان يُعالج نفسيًا.

مللت عن البحث وتوقفت عن سؤال الناس، وعن البحث عن سبب انتحاره، فيبدو أن الجميع يختلق الأسباب والإجابات وفقًا لرؤيتهم الخاصة.

وأن هذا الحديث يبعدني أكثر عن الحقيقة المجهولة.. فالتزمت الصمت عن هذا الموضوع، حتى نسيت تمامًا...

وبعد مرور سنوات ليست بالكثيرة.....
أقابل صدفة أحد الأصدقاء، وقد كان أعز أصحابه المقربين، ويتعامل معه بصورة مباشرة، هذا الصديق يكبرنا عمرًا بعشر سنوات تقريبًا، بل وأكثرنا خبرة وفهمًا للحياة.

عندما بدأ الحديث عن تامر، ظللتُ أستمع له، دون توقف. وسرد شريط حياته، منذ البداية وحتى يوم الوفاة.

وعندما سألته في نهاية الحوار....
- لماذا انتحر تامر، في اعتقادك الشخصي...؟

أجابني بكلمات لم أكن أتوقعها، ولم تخطر ببالي إطلاقًا.
- عاش تامر تابعًا، طوال الوقت.
- تابعًا...!..... كيف...؟
- نعم، كان تابعًا في شبابه، له ولاء المندفعين في المعصية، يلهو ويمرح دون حساب، ودون إدراك، وعندما تُوفي أحد أصدقائه، نقل تلك التبعية لبعض الشباب الملتزم، دينيًا وأخلاقيًا...

لا أنكر أن ذلك كان رائعًا، ولكنه لم يُدرك مبدأ ذلك الالتزام، ولم يعِ، ولم يوازن أفكاره، فيقبل منها ما يناسبه، ويرفض ما لا يقبله عقله وقلبه.
ربما لم يستطع أن يصل إلى الوسطية المريحة... أو لم يُدركها، فظل يضغط على نفسه، ويحملها ما لا طاقة له بها. فكل الأديان تدعو إلى الوسطية، فلا تشق على نفسك حتى تكل وتتعب، من أبسط الفروض.

وأخيرًا، وجدتُ الإجابة عن ذلك السؤال اللعين.. "لماذا انتحر تامر..؟"

فلم يجد تامر طريقه للفلاح، تخبط كثيرًا بين عدة طرق، ولم يؤمن بمبدأ، أو بهدف..... حتى يظل ثابتًا عليه حتى يصل إلى الفلاح في النهاية.....

لا نملك الحكم عليه (حاشى لله)
لا نعلم من الأقرب منا إلى الله،
ربما يشفع له الكثير من العمل الخفي،
الذي كان بينه وبين ربه،
رحم الله تامر وأسكنه فسيح جناته....

❁ ❁

(الحدوتة السادسة)

أبنائي الأعزاء

ربما تضطرنا الظروف إلى.....
قرارات صعبة لم تكن في الحسبان.....
ثم نحمد الله أننا اتخذناها....

كان المهندس "أحمد" يعمل في الخليج، في أواخر السبعينيات، في مجال البترول، حيث ينظر له الجميع ما بين غبطة وحسد.

وفي كل أجازة صيفية، ينزل إلى القاهرة، فيتلاحق أقاربه لزيارته، ومنهم أنا ووالدتي....
كان كل أقاربنا يشيرون إليه بالبنان، لثرائه الواضح عليه وعلى أسرته.

فوجئنا في إحدى السنوات، بوفاة زوجته في سن صغير، لا يتعدى الأربعين، بعد مرضها الشديد الذي أصابها فجأة. ربما لعب الحسد دورًا كبيرًا في ذلك، ولكنه في النهاية قدر الله. تاركة وراءها خمسة من الأبناء، صغارًا، لا يتجاوز أكبرهم الحادية عشرة من عمره.

حضر الجميع لمواساته، ومؤازرته، والوقوف جانبه، فقد كانت صدمة عصيبة عليه هو وأولاده.

ثم انصرف الجميع..... وبات الحزن يحفهم، وحدهم في المنزل.

كان من السهل في ذلك الوقت، على المهندس أحمد، أن يأخذ القرار بالزواج، من إحدى الأرامل أو المطلقات، لمساعدته في تربية أبنائه الصغار فجميعهم لا يزالوا في مرحلة الدراسة، إضافة إلى طفلته الصغيرة التي ما زالت تحبو على الأرض. ولكن الأب جمع أولاده الصغار، أبلغهم بقراره، بأنه سيترك العمل في الخليج، ليظلوا معًا هنا في القاهرة.

وأودع كل أمواله التي رُزِق بها من عمله، في كل تلك السنوات، في البنك، لينفق من ريعها.

لم يكن ذلك بالقرار السهل عليه، فقد كان لا يزال شابًا، يقوى على العمل، بل يهواه ويحبه، ولكنه كان بين خيارين، الأول هو الاستمرار في العمل ولكن دون رعاية أبنائه، فسيضطر لتركهم لأقاربهم لرعايتهم.

والخيار الثاني والأصعب وهو ترك العمل والبقاء مع أولاده، لتربيتهم، واحتضانهم بدلًا عن أمهم. خاصة أنه كان يمتلك المال الذي سيسعى، جاهدًا أن يكفيهم، حتى ينتهوا من دراستهم.

وبالفعل اختار المهندس أحمد الخيار الأصعب، واستقال من عمله في الخليج، وبدأ يعد العدة للبقاء في القاهرة. اجتمع بأولاده وبناته، ليوزع عليهم أدوارهم في المنزل لكي يحمل كل فذ حمولته. تلك الحمولة المخففة نوعًا، لأن العبء الأكبر كان على كاهل هذا الرجل العظيم.

وتمر السنون وراء السنين، وبدأت أنوار الطريق الذي رسمه المهندس أحمد لأولاده تضيء.... فها هما الابنة الكبرى وأخوها الذي يليها يلتحقان بكلية الطب. أما الأخ الأوسط، وأخوه الأصغر يلتحقان بكلية الصيدلة. فواجه الأب حينئذ، مفاجأة لم تخطر على باله... فقد قررا الأخوان ترك كلية الصيدلة والسفر إلى الولايات المتحدة الامريكية، كباقي الشباب الذين يأملون في ذلك.

شعر الأب أن طريقهما سيأخذ مسارًا آخر، عما كان يتمناه، وبدأ الصراع بين الأب وأولاده، على البقاء لإنهاء دراستهما، ولكن إصرار الشابين كان مُلحًا وقويًا، لم يستطع الأب إلا أن يفكر لهما بشيء، ليحافظ على مستقبل أفضل لهما، حين شار عليهم بتأجيل الدراسة بشكل رسمي، لحين عودتهما من تجربة السفر هذه، أو لحين التأكد من سلامة وجودهما في أمريكا وحياتهما هناك بشكل لائق. بالفعل شعر الشابان بالسعادة، لتفهم والدهما لأحلامهما.

لم يكن لدى المهندس أحمد خيار آخر، كان لا بد له أن يتفهم أحلام أولاده، كل العائلة ظنت أنه سيقف أمام سفر ولديه، خاصة بعد كل تلك التضحيات التي قدمها لهم، وكل المعاناة التي عاشها رجل في شبابه، يطبخ، ويغسل، وينظف البيت لخمسة أولاد.

ربما تفهمه كان سر النجاح التالي لهم، فقد أصبح الأخ الأكبر جراحًا مشهورًا، والابنة الأصغر منه أستاذة في الجامعة، والأخوان لا يزالان في أمريكا حتى يومنا هذا، أسمع عنهما أطيب الأخبار والفتاة الصغرى طبيبة جميلة وأم لثلاثة أبناء.

رأى المهندس أحمد ثمرة كفاحه قبل أن يتوفاه الله. فقد رابط وتشبث بطريق فلاحه إلى آخر يوم في عمره. شهد له أبناؤه وبناته، بأنه قد وفى لهم وأكفاهم صعاب الحياة.

حزنوا عليه حزنًا شديدًا بعد وفاته، كما حزن الجميع من حوله...
إلا أن الحقيقة الباقية التي لا تزال باقية تُحكى.....
هي أن إصراره على الكفاح كان دربه للفلاح....

❁ ❁

(الحدوتة السابعة)

حكاية زُهرة

يعتقد البعض أن الأنثى.....
زجاج هش.....
قد تكون زجاج في رقتها.....
ولكنها تذبح في حدتها.....

أرسل الموجه لي ذات يوم، جواب انتداب ثلاثة أيام إلى معهد آخر، لأحل محل مُدرسة أخرى في أجازة، وبالفعل قمت بتنفيذ هذا الندب.

وفي ذلك المعهد، كانت بداية معرفتي بـ"زُهرة"، صاحبة الأمل والبهجة، هكذا يسمونها في المعهد.

نظرتُ إليها بغبطة شديدة، كنت فرِحة بوجهها البشوش، وروحها المرحة، حضورها فعال، ونفسها طيبة.

لاحظتُ حب الجميع لها، وتقديرهم أيضًا... ظننتُ في قرارة نفسي، أنها نالت كل طيب الحياة لتصل إلى ذلك الظهور البراق.

وقفتُ معها طوال اليوم الأول لي، لا أعلم كيف تدفق الحوار بيننا بهذه السرعة، كلام كثير، وأحاديث كثيرة بيننا خلال الثلاثة أيام، قصَّت زُهرة لي قصة حياتها، كنتُ أستمع لها بشغف شديد، أريدها أن تكمل حكايتها مع الحياة.....

أتمت زُهرة دراستها بتفوق، كأي شابة مجتهدة وملتزمة في الجامعة، لتبدأ مشوار حياتها، بزواجها من أحدهم، نعم أقل ما يقال عنه إنه (أحدهم)، فهو يستحق هذا اللقب، فقد تخلى عنها، وهي حامل في ابنها الوحيد، الذي يبلغ الآن السابعة عشرة ربيعًا.

فقد أحب وعشق تلميذته الصغيرة، وألقى عن عاتقه تلك الزوجة، الناضجة، المثقفة، وغلبه هواه، فتزوج تلك التلميذة التي تصغره بسنوات. ولم تجد زُهرة طريقًا آخر، سوى الالتفاف والعودة إلى بيت أبيها، بعد زواج لم يكتمل سوى عامين.

(أحدهم) تزوج المراهقة الصغيرة، وأراد العبث بمستقبل زُهرة، حين رفض طلاقها، كما رفض إعطاءها أي حق من حقوقها المدنية، لها أو لمولودها الصغير.

تلك القصة المتكررة في محاكم الأسرة كل يوم.....
ولكن زُهرة اختارت مسارًا آخر لتلك القصة، بعد أن خذلها محاميها، الذي وكلته في قضيتها، حين باع حقوقها للخصم... وجدت تلك الأنثى الضعيفة، التي لا حول لها ولا قوة، وحيدة، بلا أي حقوق.

قررت زُهرة دراسة الحقوق، وبالفعل بعد أربعٍ سنوات من التفوق في كلية الحقوق، تخرجت بتقدير جيد جدًا.

كان ذلك أول انتصار لها في معركة الحياة.....

وقفت زُهرة بنفسها في ساحة المحاكم، بعد أن قررت أن تكون هي المحامي لنفسها، صارعت من أجل استرداد كل حقوقها التي سُلبت منها...

لم يخذلها ربها، وكيف تُخذَل وقد توكلت على خالقها، وكافحت، واستمرت في طريقها بلا يأس أو ضعف. تمكنت أخيرًا من الفوز بكل تلك القضايا المعلقة، ولم يكن انتصارها في ساحات المحاكم، واستردادها لحقوقها هي النهاية، بل كانت البداية لدرب الفلاح التي اختارته....

تولَّد في قلبها إحساس العطاء الذي لا ينتهي، أرادت أن تساعد من حولها، لتحفزهم إلى طرق النجاح، وتدفعهم إلى حياة أفضل، فتعمقت في دراساتها في مجال التنمية البشرية بشكل رائع، حتى أصبحت الدكتورة زُهرة سفيرة التحفيز.

تخللت كل تلك السطور البسيطة، أيامًا وليالي شاقة مرت بها زُهرة، بل وسخرية البعض من حولها كلما فتحت لنفسها مجالًا جديدًا للدراسة،

فكلما تقدمت، كثرت العثرات أمام طريقها. أحيانًا يُصيبها الإحباط قليلًا، وذلك بالطبع يأتيها من هؤلاء السلبيين، الذين يستكثرون على البعض النجاح تلو النجاح، ولكنها تعافر، وتسبح بين تلك الأمواج العاتية، لتصل إلى مُرادها، حتى أصبحت المعلمة الفاضلة مُربية الأجيال، والمحامية الذكية، والدكتورة زُهرة سفيرة التحفيز، في آن واحد.

أشعر بالفخر أني صديقة لها...
وأسعد كثيرًا حين أستمع للقاء لها في المذياع...
أو في أحد البرامج التليفزيونية...

❁ ❁

(الحدوتة الثامنة)

قرار صعب

تحاول أن تفعل الصواب.....
بل وتؤمن به....
فتواجهك الصعاب.....
لتحيد عنه.....
ولكن صلابة إيمانك به.....
تحميك....

كان يوم التكريم في المدرسة، للطلاب المتفوقين دراسيًا والمتميزين أخلاقيًا، وقفتُ مع زملائي في الفناء لمشاركة الطلاب فرحتهم.

كان تلميذي عبد الرحمن، من ضمن الطلبة الذين تم تكريمهم، لتميزهم العلمي، والأخلاقي.

عندما دخلنا الفصل لمواصلة الحصص الدراسية، هنأتُ عبدالرحمن، وطلبت منه أن يشكر والدته، التي كانت تصطحبه في الحفل، بكل حب واهتمام بالغ.

فصدمني عبد الرحمن.....

- هي ليست والدتي، يا أستاذة.

- إذن، من تكون تلك السيدة الفاضلة، يا عبد الرحمن..؟

- إنها زوجة عمي.

- وأين أمك يا عبد الرحمن...؟

- إنها في المنزل مع عمي لأنه مُصاب بالبرد اليوم....؟

توقفت عن التنفس، وتاه عقلي.....

- زوجة عمك معك في الحفل، بينما أمك مع عمك في البيت لأنه مُصاب بالبرد.....!

- أريد أمك..... أقصد زوجة عمك أن تأتي فورًا غدًا.

- أيهما تريدين يا أستاذة....؟

- أي واحدة يا عبد الرحمن.....، أي فرد من عائلتك...!

ظللت طوال اليوم، أخمن أن هذا الولد خياله واسع، وأنه يؤلف قصصًا... إلى أن جاءت تلك السيدة التي كانت معه في الحفل، لمقابلتي في اليوم التالي.

- أهلًا بكِ يا سيدتي...

ما صلة القرابة بينكِ وبين عبد الرحمن...؟

- لماذا...؟ هل فعل شيئًا...؟

- أرجوكِ... أجيبيني؟

- أنا أمه....

فبدا على وجهي الاستغراب والحيرة، فصمْتُ والتوت شفتاي وسكن لساني عن الكلام....

- أنتِ أمه!

- أقصد مثل أمه، فأنا زوجة عمه...

فتنهدتُ تنهيدة طويلة.....، وتنفستُ قليلًا...

- أعلم أنكِ في حيرة، يا أستاذة....، سأروي لكِ حتى تفهمي كل ذلك التشابك الذي ترينه محيرًا....

طلبتُ منها الجلوس، وبدأتُ أستمع لما ترويه من كلام....

- لا أعلم من أين أبدأ يا أستاذة.. إنها قصة طويلة.....

تزوجت هشام عن حب، وليس حبًّا عاديًّا، كان حبًا وُلِد بعد الزواج ولكنه غلب حب العاشقين، سلمتُ له كل عمري، وعالمي.. ولكن الرياح أحيانًا تأتي بما لا تشتهي السفن.

فقد قُدر لنا عدم الإنجاب، أنا المشكلة.....

لا أستطيع الإنجاب، حاولنا بكل الطرق، ولكني لا أملك سوى الرضا بقضاء الله وقدره. قررتُ منذ ذلك الوقت، أن أربي أولاد أخ زوجي. أكبرهم عبد الرحمن، نشأت محبة بيني وبين ذلك الطفل الجميل، والدته تعمل لوقت متأخر، فكانت تتركه لي طوال اليوم منذ ولادته، حتى أن عبد الرحمن يعتبرني أنا أمه الفعلية، هو لا يتركني إلا إذا حلَّ المساء، لينام مع أمه وأبيه.

ذات يوم، كان أبو عبد الرحمن يركب دراجته البخارية، مُتجهًا لشراء بعض الطلبات.... فاصطدمت الدراجة البخارية بسيارة نقل، توفي أبو عبد الرحمن في ذلك الحادث، وأصبح عبد الرحمن يتيم الأب.....

كان زوجي لزامًا عليه، أن يُراعي زوجة أخيه، ويلبي لها طلباتها هي وأولادها... خاصة أن أخاه كان يصغره سنًا بسنوات... وأنتِ تعلمين، عُرِف في الأرياف، الرجل يتزوج أرملة أخيه.

لم أكن من اللواتي يصرخن، أو يعترضن على ذلك الأمر. لأن هناك أمرًا لا أستطيع أن أنكره، أو أتغافل عنه، فأنا عقيمة..... عقيمة فعلًا.

- لا، لا تحزني حبيبتي..... هوني على نفسكِ.

- أنا لستُ حزينة، أنا راضية، فأنا التي طلبت منه ذلك.
طلبت منه أن يتزوج أرملة أخيه.....!
"بيدي لا بيدي عمرو".....
أردتُ أن أسعده، أردتُ أن ينجب له طفل من صلبه.
أردت ألا يتخلى عن أرملة أخيه....
أردت أن يظل عبد الرحمن معي، فأنا لا أقوى على مفارقته.

اتهمني الجميع بالجنون... حتى أهلي وأصدقائي، أخبروني بأني سأندم على هذا القرار. لم يكن لي خيار آخر..... أقسم بالله.... لم يكن لي خيار آخر.

لا بد أن أرضى وأتعايش مع تلك الحقيقة المُرة، أعلم أن الله سيعوضني.
أنا على ثقة كبيرة، فحياتي كلها توكل على الله.....
وهل لي خيار آخر....؟

- كيف استسلمتِ بهذه الصورة، أراكِ جميلة الوجه، في ريعان شبابكِ. لم تكني مضطرة لأن تلجأي لهذا الحل.

- أنتِ لا تعلمين مدى حبي لزوجي...، هو إنسان جميل. يحبني ويحترمني بشدة، بيننا شيء لا يمكن أن يُوصف، حظي في دنياي كان زواجي منه. أما عدم قدرتي على إنجاب طفل له، فكان البلاء الذي لحق بسعادتي، ليقتلها.....

بكت بشدة، حاولتُ أن أهدئها، وطلبتُ منها عدم الكلام في الوقت الحالي..... لكنها أرادت مواصلة الحكاية.....

- أتعلمين يا أستاذة....!

لو أراد جزءًا من جسدي لأعطيته له، دون حتى أن أفكر، فكيف ألا أسمح له بالزواج من أجل أن يُرزق بولد. فهذا شيء يسير....

- أنتِ استثناء، يا أم عبد الرحمن، اسمحي لي أن أناديكِ بهذا الاسم، فأنتِ تستحقينه، حتى ولو لم تكني أمه، التي أنجبتيه بالفعل.

- شكرًا لكِ،.....

سمحتُ له بالزواج، من أرملة أخيه، بل دفعته دفعًا لذلك. عليّ أن أعترف أنه واجهني في البداية، وعنفني لما أفعل ولكن هشام، في النهاية، كأي رجل، يحن إلى الأبوة.

وافق، وبالطبع، قد رحب أبوه وأمه بذلك كثيرًا، حتى يصون أولاد أخيه الصغير، المُتوفى، كما أن هناك مصلحة أخرى لابنهم، وهي الإنجاب.

تم الزواج، وفي أول أسبوع أخذت عبد الرحمن وأخواته البنات معي إلى بيت أهلي، حتى لا يكون هناك حرج بينه وبين أرملة أخيه.

- اعذريني لمقاطعتكِ.... ولكني أحييكِ الآن على ذكائكِ الشديد.... أنا أنظر إلى وجهكِ الجميل الآن.... فأنتِ الأجمل.... أليس كذلك.

تبسمت قليلًا..... ثم نظرت إلي قائلة.

- كم من امرأة شديدة الجمال والحسن، تزوج عليها زوجها. ألم تسمعي عن هذا من قبل.

- بلى، قصف جبهة لي.....

- عزيزتي الأستاذة، إنه الحب، أنا على يقين من حبه لي، وعلى يقين أكبر من حب الله لي، فقد حرمني الله من الإنجاب، وأعطاني حب الزوج الصديق، السند، الرجل بكل معاني الرجولة الجميلة.

أيحرمني الله من الاثنين، حاشاه، فهو العدل....
نعم، هو العدل، يمنع ويعطي، ويعطي ليمنع.
فوجدتُ نفسي أصفق لها دون شعور.....

- ما أروعكِ... وما أروع طيب كلامكِ...، بالفعل أي زوج هذا يتخلى عنكِ، أو يفضل إحداهن عليكِ.
- شكرًا لكِ....

عدتُ إلى بيتي، بعد أسبوع معاناة، من كثرة اللوم الذي كان أهلي يلقونه على عاتقي، فقد أمضيت أسبوعًا كاملًا في بيت أبي، بعد زواج دام عشر سنوات، لم أبت فيه ليلة واحدة خارج بيتي، أو بعيدًا عن هشام، كان قلبي يعتصر، لم تغفل عيني سوى ساعات قليلة.

اصطحبت أولاد (ضرتي)، وعدتُ إلى بيتي، أطير طيرًا من الفرح لعودتي. ولكني صُدمت حين تخلى عني الأولاد، وجروا إلى أمهم، ليرتموا في حضنها، بعد أن تعبت معهم أسبوعًا كاملًا ألاعبهم، وألاطفهم.

رحب بي هشام، ولكن دون أن ينظر إلي في عيني، وكأنه خجل من مواجهتي. سيلًا من الدموع على وجهي، فوجدته يحتضني بشدة أمام زوجته، فلاحظت الغيرة الشديدة، تظهر على وجهها.... فقد نسيت أنه زوجي.....

- يا لجرأتها، قلتُ لكِ، أنتِ مثالية، ولكن من حولكِ ليسوا ملائكة....

- الحمد لله، ثقتي بالله، لن تضيعني.....

بدأت معي ألاعيب شيحة، وأنا لستُ كذلك....

مرت أيام وليال، وهي تحاول أن تطغي على أيامي.

بحجج كثيرة، أنها تعبة، ومحتاجة إليه، وأحيانًا تُريده في موضوع مهم، لا يحتمل التأجيل... بدأت أضجر، ولكن لم يبدُ على وجهي، أي ملامح الغضب، أو العتاب... فأنا مشغولة بتعليم الأولاد (أولادها)، فهي لا تعرف شيئًا عن تعليمهم، أو دراستهم، فهذه مسؤوليتي أنا منذ كان زوجها حيًا يُرزق فهم أولادي أنا... هذه حقيقة، وحبهم لي ليس تمثيلًا، الأطفال لا يعرفون الكذب، ويشعرون بمن يحبهم.

بدأت أتغاضى عن كل شيء تافه تفعله، لأنني أدرس أيضًا فأنا مشغولة، كما أنني مهتمة بالقراءة، ولا أستوعب كلام النساء وثرثرتهن، فهذا طبعي منذ صغري.

وذات يوم كنت وأنا نازلة من شقتي، في الطابق الثالث سمعتها، على باب شقتها، في الطابق الثاني.... تتحدث في الهاتف الجوال مع إحداهن، بصوت مسموع، ليس من طبعي أقف لأسمع....

ولكني تسمرتُ في مكاني، حين بدأت أعي ما تقول... وجدتها تحكي ملاطفة زوجي لها بشكل لم أعرفه منه منذ عشر سنوات، وتقول لها إنه بدأ يحبها هي، فأنا محترمة وجادة، أكثر من اللزوم.....

كانت تلك الكلمات أشبه بالسياط التي تضربني...

كانت تزلزل قدمي، دخلت بيتها، ولم ترني. وجدتُ نفسي أسير في الطرقات دون أن أشعر أين وصلت حتى وجدتُ نفسي قد مرَّت علي أربع ساعات، أسير على قدمي، دون أن أشعر.....

فقد وصلت بلدة أخرى جوارنا، فجلست على تلك المقاعد أمام النيل، صامتة، غير قادرة على الكلام، لا يهمني، أنه تزوج، لا يهمني أن يبقى معها فترة أطول.

ولكن، ما يُوجعني حقًا.....

هو أن يكون إحساسي كاذبًا، لا أستطيع أن أتخيل أني كنتُ موهومة كل ذلك الوقت....

زوجي هشام يحبني أنا، أنا معشقوته.....

يا ربي..... قلبي يعتصر..... يا ربي هون علي....

كل حياتي أرجعها لك يا الله.....

أنا رضيتُ بما قسمت لي.....، ولا أنقم على أحد...

ولكني أعلم أنك العدل.....

مرت امرأة من جواري، خافت علي، حين رأتني وأنا أناجي ربي، وأشكو همي، فقلقت علي... ظنَّت أنني سأنتحر... رأيتها وهي تراقبني من بعيد، حتى اقتربت مني وسألتني إن كنت في حاجة إلى شيء.

نظرتُ إليها وقلت: "اطمئني، أنا مؤمنة، لن أفعل ما يغضب الله مني".

وتركتني، وطبطبت على كتفي، وقالت لي: "يا بنتي... اهدئي، وأكملي مناجاتكِ الجميلة، التي سمعتها منكِ، مع ربكِ، فهو وحده من يغير القدر".

وظللت على هذا الحال وعلى هذا الوضع إلى الساعة الثانية فجر اليوم الثاني. حتى هدأت ووجدت نفسي لن أقوى على السير... ففتحت الهاتف الجوال، بعد أن كان مغلقًا، فوجدت الكثير من الاتصالات من كل من أعرفهم، ورسائل ورنات كثيرة من هشام، حتى أن شحن البطارية لم يستوعب، فأغلق الهاتف.

لم أعرف كيف أتصرف، ألهمني الله أن أتجه إلى إحدى المحلات، لأطلب منهم أن أقوم بمكالمة. اتصلت بهشام، وطلبت منه أن يأتي ليأخذني، فأنا لا أستطيع السير...

جاء هشام وحده، وكان فطنًا حين فعل ذلك.....

لم أكن أريد الكلام مع أحد سواه.

- هشام.....!

- لماذا فعلتِ ذلك بي.. يا جهاد..؟، أنتِ لا تعرفين غلاوتكِ عندي...

- هل أنا كذلك....؟

- أنتِ من زوجتني بها رغم اعتراضي.

- ليس هذا ما يوجعني، يا هشام.

- أنا لم أفعل شيئًا يغضبكِ، فماذا يبكيكِ..؟، هل ندمتِ على قراركِ؟

- لا، والله، لم أندم..... أنا تعبة من شيء آخر....

وحكيت له ما سمعته على السلم من (ضرتي).
صمت هشام، ولكن لم يبدُ على وجهه الخجل كما في السابق.
بل بدا على وجهه الغضب الشديد.....
وأخذني من يدي، وشاور لسيارة أجرة وأدخلني برفق دون كلام.
ظلَّ صامتًا طوال الطريق، ولم يتفوه بكلمة واحدة.
وصلنا إلى البيت.....
صاح هشام بصوت عال "استيقظوا جميعًا".
قام بإيقاظ أمه وأبيه، وكذلك (ضرتي)، جمعهم جميعًا، وطلب منهم ألاَّ يتفوه أحد بكلمة... وصاح فيهم بصوت عال، وهو ينظر بغلظة إلى زوجته الثانية.....
- اسمعوا جميعًا... جهاد هي حب عمري، هي زوجتي الأولى، وعشقي الأول والأخير، وأنا لم أظلم أحدًا، وعدلت بينكما على قدر استطاعتي. ولم أتزوج دون إذن منها، فهي من ترعى أولادًا ليسوا أولادها، وتنازلت عن جزء من حياتها من أجل إسعادي.

هي تتقي الله فيكم، فاتقوا الله فيها. وأنا لم ولن أقدر على العيش دونها، فلتفهموا هذا وتعوه جيدًا.

هدأت الأمور بعد ذلك، وأصبح كل شيء في نصابه، بلا لغط أو سوء تقدير. حملت (ضرتي)، وأنجبت فتاة جميلة... صمم هشام على أن يسميها جهاد، وهذا أسعدني جدًا. علمت الزوجة الثانية أني لي محبة في قلب هشام لن تتزحزح.....
ومرت الأيام والسنوات، وأصبح عبد الرحمن وجهاد الصغيرة دائمي الإقامة معي، في شقتي. وأصبح لدي ابن وابنة....
عبد الرحمن وجهاد.
وأنا حامدة، شاكرة لله فضله ونعمه.

نعم، صدقتِ، يا أم عبد الرحمن وجهاد...
أنتِ اخترتِ مبدأ القناعة بقدركِ المحتوم....
وآمنتِ ووثقتِ في أن الله لن يخذلكِ....
فلح الاختيار، وفلح ظنكِ بالله...

❁ ❁

(الحدوتة التاسعة)

عم جمال بتاع الفول

ليس عيبًا أن تسعى إلى المال.....
ما دمت تسير في درب الحلال....
ستُرزَق.....

فاجئني زوجي بفسحة لطيفة، فقد دعاني للخروج على الكافيه بجوار البيت، الذي لا يبعد سوى بعض الأمتار. ولكنني شاكرة له بهذه الفسحة، فهي أفضل من لا شيء.

كان الجو رائعًا، وهادئًا.....

أشار زوجي إلى ذلك الرجل العجوز، الذي يجلس مع زوجته الأنيقة بجوارنا، وقال لي:

- أتدرين من هذا الرجل....؟

فهززت رأسي مُجيبة بلا.....

- إنه عم جمال بتاع الفول.....

- عم جمال وبتاع الفول.....!

- نعم، كان رجلًا بسيطًا، له حكاية لطيفة.....

- كلي آذان مصغية.

- كان عم جمال مُوظفًا بسيطًا، يصحو من نومه مبكرًا، يذهب إلى عمله بكل نشاط، يجتهد ويجتهد، ولكن راتبه لا يكفي لآخر الشهر.
زوجته امرأة طيبة، تحاول أن تعاون في توفير نفقات البيت، على قدر ما تستطيع، ولكن دون جدوى، فالمصاريف تزداد يومًا بعد يوم.

قرر عم جمال أن يستقيل من وظيفته الحكومية، ويستبدل رزقه من عمل سندويتشات الفول والطعمية.
تفاجأت زوجته بهذا القرار، ولكنها مؤمنة به، فلم تؤنبه، أو تعاتبه على ذلك. بل على العكس تماما، قررت العمل معه يدًا بيد. استقال عم جمال، وبحث عن محل مناسب في مكان تجمع الطلبة، والموظفين.

كانت زوجته تُسهر طوال الليل لتجهيز مستلزمات السندويتشات. يسمع عم جمال صوت آذان الفجر، فيقوم ليصلي، ويدعو الله بالرزق الحلال الذي يكفيه هو وأولاده.

تساعده زوجته في نقل التجهيزات إلى المحل، ليبدأ عمله مُتوكلًا على الله، تدافع الناس للشراء منه، فكان طعم الفول والفلافل من عنده، لها مذاق خاص.

يومًا وراء يوم، وأعوام وراءها أعوام.....
ذاع صيت عم جمال.....

تحسنت أحوالهم المادية بشكل كبير، وتخطوا الصعاب في حياتهم، وكان زوجي يراه مصليًا في المسجد في أغلب الفروض على قدر المستطاع.

أنهى زوجي الكلام عنه، ولكنني وجدتُ نفسي أنظر إلى زوجته فهي جالسة على كرسيها، تنظر إليه بحب، أما هو فقد التف بكرسيه مائلًا بجوارها، يحاكيها، أشعر أنهم في مرحلة الخطوبة، وليسوا زوجين قد مرَّ على زواجهم ثلاثون سنة.

شعرتُ أن بينهم عذوبة ورقة في التعامل....
هناك فهم عميق ومرونة متبادلة بين الطرفين....
يا ليت كل الشباب وأنا منهم ..
نتعلم من فلاح عم جمال بتاع الفول!!

(الحدوتة العاشرة)

هل أسير على الدرب.....؟

عشرون عامًا مضت.....
يتخللها شيء مفقود.....
فأعثر عليه صدفة....

طفلة صغيرة تحمل زهرة، وتجري وراء فراشة نضرة، تحاول الإمساك بها، إلا أنها تطير من بين يديها بعيدًا. تنظر إلى السماء، وتشير بأصابعها الصغيرة، محاولة لفت الانتباه لتلك الفراشة، ظانة أنها ستعود لها مرة أخرى.

تكبر تلك الطفلة، سنوات وراء سنوات، وهي لا تزال تطمح في الإمساك بتلك الفراشة، ولكنها الآن أصبحت مشغولة بشيء أكبر، فهي في الثانوية العامة، تطمح أن تكون مُذيعة مشهورة، أو كاتبة عظيمة.

اجتهدت بكل ما تملك من قوى واستيعاب، ودخلت مضمار المنافسة على المجموع. بالفعل حققت ما تمنت، والتحقت بكلية الإعلام.

أول يوم دراسي كان لا يُنسى، فكانوا يطلقون على كلية الإعلام "كريم شانتيه المجتمع".

كانت في شدة الفرح والسعادة، فقد اختارت أشيك الملابس لتحضر بها المحاضرات في أول يوم، وجلست على البنش الأول.

ولأن ضحكتها مميزة، فقد اختارها المصور ليلتقط لها الصور وسط زميلاتها، في حفل استقبال الطلاب الجدد. لم تكن من سكان القاهرة، فقد كانت من محافظة أخرى. فأصابها الضيق من طول الطريق وزحامه كل يوم. فقرر أبوها أن تقيم في المدينة الجامعية، وبالفعل، قد كان.

قضت يومًا وراء يوم، ولكن الضيق لا يذهب عنها، البنات التي يشاركنها في الحجرة يتسللن ليلًا للخروج. لم يُعجبها ذلك الوضع، تعجبت من عدم التزامهن بالصلاة. شعرت بالخوف على نفسها من فتنة الدنيا وزهوها، حاولت أن تساعدهن، ولكنها وجدت تأثيرهن أقوى بكثير. حتى أنها فكرت في خلع حجابها، التي ترتديه منذ سنوات.

وفي أحد الأيام، أثناء محاضرة أحد الأساتذة، أشار الأستاذ المحاضر أن الفتيات المغتربات يشقون على أنفسهن بتواجدهن هنا في كلية الإعلام. وأن الصحافة أو الإعلام يعمل بها خريجوا أي كلية أخرى، طالما يمتلك الموهبة. فالإعلام يعتمد على الموهبة أكثر من أي شيء آخر.

ازداد ضيقها، وبدا الحزن على وجهها، خاصة أنها لم تعتد البعد عن أهلها إطلاقًا. شعرت أن حجرتها تناديها، مكتبها التي اعتادت أن تذاكر عليه، أخواتها، أمها وأبوها، أصدقاؤها.

فقفرت الابتعاد، خافت من رد فعل والديها.....
فقامت بسحب ملفها بنفسها، وحولت دراستها، إلى كلية التربية، قسم اللغة الإنجليزية. لم يعاتبها أبوها على ما فعلت، بل ابتسم لها قائلًا....
- أحببتُ ما فعلتِ، فقد كنت أشتاق إليكِ كثيرًا..
اجتهدي، ولا تُشغلي بالكِ....

مرت الأربع سنوات، بسرعة الضوء، لأنها قابلت في تلك الكلية، كل صديقاتها، وجاراتها. أحبتها بصدق، راضية، قانعة، تشعر بألفة مع من حولها. تخرجت بتفوق، لذا عملت في التدريس قبل صديقاتها.
أصبحت معلمة لغة إنجليزية.....

اعتبرتها مهنة سامية، أرادت أن تترك في عقول طلابها بصمة نفسية راقية. لم تكن تركز على توصيل المعلومات فقط، بل اهتمت بمعنويات التلاميذ. أرادت أن تعلمهم النواحي الإنسانية، قبل تعلم العلم نفسه.

كانت لها طريقة غريبة في التدريس، كان يعارضها فيها رؤساؤها أحيانًا... تلك الطريقة، قائمة على عمل التلميذ بنفسه بصورة أكبر من عمل المعلم. أي أن المعلم مُرشد للتلميذ أكثر منه مُلقن للمعلومات، من أجل تخزينها في عقولهم.

عارضها أغلب زملائها، ولكنها كانت وما زالت مُصرة على مبدأها.... ترك بصمات أخلاقية واسترشادية، أهم من زرع معلومات قد تفيد وقد تُزال من عقولهم بمنتهى السهولة.

عشرون عامًا في نفس العمل، وذات يوم، وهي ذاهبة إلى مركز التصحيح، لأداء عملها... تنظر من نافذة السيارة، وتسأل نفسها..... هل أمسكتِ بفراشتكِ، التي كنتِ تحاولين الإمساك بها وأنتِ طفلة..... يا سعاد...؟ نعم، إنها الطفلة تحدثني...

هناك شيء ناقص بداخلي.....

أشعر بفيض غزير من المشاعر والكلمات، أريد أن أسطرها على ورق..... فضحكتُ، وسألت نفسي، هل أستطيع ذلك، بعد عشرين عامًا....؟

ولمَا لا، فلأحاول.....

أمسكتُ القلم هذه المرة، لا من أجل تصحيح الكراسات، أو من أجل تحضير الدروس. ولكن من أجل أن أكتب ما يجول في خاطري.... يا لها من سعادة، تغمرني، بدأتُ أعبر عما بداخلي.

واجهني بعض الناس بالسخرية مما أفعل، ولكن البعض الآخر قام بتشجيعي، نظرتُ إلى مُشجعيني، وأغمضتُ عيني عمن أحبطني، وحطَّ من همتي، أصررتُ على المضي في ذلك الطريق، فقد وجدتُ نفسي أخيرًا، بعد عشرين عامًا، أبحث عن شيء مفقود داخلي، ولا أعلمه.... حمدًا لله، الذي وهبني شيئًا عظيمًا كهذا.....

فلو قرأتم فعلًا تلك السطور،.....
فهذا يعني أنني قد حققتُ حلمي في النجاح....
وأنني سرتُ على درب من دروب الفلاح...

❁ ❁

على الدرب...

كانت هذه بعض القصص..
لأناس اختلفت رؤيتهم للحياة.
منهم من اعتنق مبدأ، ومنهم من صبر على ابتلاء.
ولكنهم في النهاية.....
جمعوا بين رضا الله، وإرضاء أنفسهم....
فقد تعبوا، وكدوا، وآمنوا بعدل الله، وعطائه.

اجتمعوا جميعًا في أمرين.....

البداية الصعبة مع الإصرار على السعي، والنهاية الفرحة بجود عطاء الله وكرمه.. ولكن.... هل خالجك التفكير ذات يوم بهذه التساؤلات.....؟

- هل تسير على درب الفلاح بالفعل....؟
- ✓ كيف تعرف أنك تسير على الدرب الصحيح.....؟
- ✓ هل هناك علامات ودلائل تُشير على أنك في طريقك الصحيح...؟
- ✓ كيف أكون من أهل الفلاح.....؟

سنحاول معًا إجابة هذه التساؤلات.....

قبل الحديث عن أي درب نسلكه، لا بد من الاتفاق أننا خُلقنا لنعبد الله، قد يقبل البعض هذا الكلام على غضض، ويقول "وما سأجنيه من ذلك، فأنا لست ملاكًا، فأنا بشر..."

ولكن الرد السريع لذلك.....
أن الله يحبنا.....

نعم، فقد خلق لنا الله جميع ألوان المتعة الحلال، قبل أن يطالبنا بعبادته، فالإنسان يظل حوالي ثلاثة عشر عامًا أو أكثر غير مُكلف بالحساب إلى أن يبلغ، فقد منحه الله أعوام الطفولة الجميلة، لكي يلعب ويلهو، مع التدريب الخفيف على العبادة، تدريب وليس تكليف كما يفعله البعض، حين يشقون على أولادهم صغارًا. فلم يشق الله عليهم، لترهقوهم أنتم البشر.

ولأن الله يحب عباده، فقد تركه ليمرح، ويتدرب، ثم يُكلف. وحين فرض الله علينا خمس صلوات، لم يكن إرهاقًا لنا كما يشعره البعض، بل لنذهب إليه ونستريح من لغط الحياة، ونحدثه، ويسمعنا... وندعوه بما نرغب ونتمنى في سجودنا، فيستجيب لنا.

عندما نصلي....
فإننا نحرك كل عضلات أجسامنا، فيحدث لنا تنشيط دون أن نشعر.

حين نركع ونسجد ونطيل في السجود، يبدأ السائل الموجود في العمود الفقري، في التجدد، ليلين الفقرات... إذن فمن المستفيد من الصلاة، بالطبع نحن، فهي البئر المليئة بالمياه، كلما ألقينا الدلو، تنعمنا بأعذب الماء الوفير.

إذن اتفقنا....

أن الله يُحبنا، وأن الغرض الأول من وجودنا هو عبادته، وذلك يصب في مصلحة العباد الروحية والنفسية وكذلك الجسدية. وذلك هو أول الدرج في سلم الفلاح.....

ثم يأتي بعد ذلك..... الهدف من حياتنا اليومية.....
أعيش، وآكل ما لذ وطاب، وأروح عن نفسي أحيانًا ببعض التنزه. ولكن ما الهدف الذي أخطط له في سنواتي القادمة.. نحن نبرع حين نخطط للمصيف كل عام، نبدأ بتوفير النفقات شهرًا تلو الآخر، ثم نحجز مكان الإقامة، ثم نتدبر أمر الانتقال، ونقوم بتوفير بعض المال للمتعة والتسلي...
وهذا ليس عيبًا أنقده، بل هو ضروري ومهم جدًا حتى نستطيع مواصلة حياتنا باقي العام دون إرهاق أو كلل.

فلماذا لا نخطط لأهدافنا في الحياة، بمثل هذا التنظيم، والاهتمام. وليس عيبًا أن ندونها على الورق، نعم.....

أذكر أحد الأصدقاء كان يأمل في الالتحاق بكلية الطب، كان يدعو الله صباحًا ومساءً، ويدرس بجد واجتهاد. حتى أنه كتب على الحائط، في غرفته "كلية الطب" على الجدران الأربعة، لكي تقع عيناه على تلك الكلمات، كلما استبدل مكان جلوسه.

وعندما سألته.....

- هل ساعدتك تلك الكتابة على الحائط....؟

- بالطبع، فكلما تكاسلت واستهواني اللهو، والعبث في الوقت، تقع عيني صدفة على "كلية الطب" فأتذكر حُلمي ويرتسم أمام عيني عملي المستقبلي فأهم على الدراسة بحماس أكبر من السابق.

الهدف ليس كلمة نتشدق بها...

ولكنها تحمل الكثير من المفاتيح لباب الفلاح ..

.. في نهاية المطاف ..

انتحر تامر، لأنه لم يحمل هدفًا، فقد كان تابعًا في بداية حياته للشباب المنحرف، وعندما أبدل تلك الحياة البائسة بحياة إيمانية أفضل، ظل تابعًا أيضًا، ولم يخلق لنفسه أي أهداف خاصة يعيش من أجلها.

فمن امتلك الهدف، وناضل من أجله، لا بد أن يناله في النهاية، وهذا وعد الله لنا، "إن الله عند حسن ظن عبده به".

فأحسنوا الظن بالله...
وتمنوا وإرسموا أهدافكم، ثم انظروا عطاء الله لكم...
تمسكوا بالإصرار....

فهو المكمل للهدف، الهدف دون إصرار، يضيع ويفنى.....
فهما وجهان لعملة واحدة...

ولكن ما الإصرار.....؟
هو العزيمة والتصميم، على بلوغ أهدافي التي رسمتها لحياتي.....
فقد تعترضني بعض العقبات، أثناء مسيرة تحقيق أهدافي...

- ✓ هل أستسلم؟
- ✓ هل ألقي باللوم على من وضعوا تلك العقبات في طريقي..؟

لو فعلت ذلك.....
فقد أضعت إصرارك.....

أذكر قصة كان يرويها "الدكتور إبراهيم الفقي" رحمه الله.....
(كان هناك رجل فقد زوجته، وله طفلان، تحمل كل المسؤولية في تربيتهما، وخلق لنفسه هدفًا في حياته... ألا وهو، تربية أبنائه، ورعايتهما، وتوصيلهما لأفضل حياة... ذات يوم أوصلهما إلى المدرسة، وعاد إلى البيت.

بعد ساعات، شاهد البلدة جميعًا يسرعون نحو المدرسة، لإنقاذ أولادهم من تحت الأنقاض فقد هُدم المبنى أثناء اليوم الدراسي. فأسرع الرجل يلهث ويجري ويطوي الأرض طيًا.....

قائلًا: يا رب...!
ساعدني في إنقاذ أولادي.....
لن أترككم يا أحبائي.....

وبالفعل حاول الحفر، ولكن الإنقاذ أبعدوه، لكي يتخذوا الوسائل العلمية في الحفر لإنقاذ الأولاد.

ظلت فرق الإنقاذ تحفر وتبحث طوال الليل حتى يأس الجميع، ولكن الرجل، لم ييأس وظلَّ يحفر هو بنفسه باقي الليل كله وحتى الصباح.....

بينما يزيح الرمل بنفسه وجد يد تحاول أن تمسك به، ففرح بشدة، وظلَّ يصرخ في البلدة كلها، لتعاونه فتجمعوا، وحفروا معه في نفس الاتجاه الذي اتخذه، وبنفس الطريقة.....
وبالفعل بدأت الأطفال في الخروج وكانت ابنته هي الأولى في الخروج، أما ابنه فكان آخر طفل.....
قال له ابنه: كنت واثقًا أنك لن تتركني، يا أبي.....

هذه القصة حملت كل معاني الفلاح والنجاح...، رسم الأب هدفه في الحياة... وعمل وسعى على تحقيق ذلك الهدف، مع الثقة بالله، بأنه سيتحقق... وعندما تعثر، كان هناك تصميم، وإرادة قوية على تحقيق ما تمناه.

فإن كنت تمتلك الهدف، التصميم والإرادة...
والثقة بالله أنه لن يخذلك.....
فأنت على الطريق الصحيح لدرب الفلاح...

أما إذا ضاع منك واحد فقط من تلك المفاتيح.....
فأنت لست على الطريق، فأنت تسير بجانبه، تلعب دور المتفرج على من يتسابقون في مضمار الحياة على الفوز.

ولا ننسى أن سعينا كله سيُرى.... كل المحاولات والتعب سيجازينا الله عليها أحسن الجزاء. طالما ليست في معصية.
فحينما وضع الله عز وجلَّ صيغة الآذان، وعلَّمه لنا، وكان فيها...

.. "حيَّ على الفلاح"...
فهو سبحانه...
صاحب العطاء والجود...
يناديا إلى الفلاح في الدنيا قبل الآخرة.

المحتويات

"حي على الفلاح" ٥
(الحدوتة الأولى) ١٣
شبيهة أم كلثوم
(الحدوتة الثانية) ٢٣
بلهاء فطنة جميلة
(الحدوتة الثالثة) ٣٥
طاقة الجامع
(الحدوتة الرابعة) ٤٥
إصرار عبد العليم
(الحدوتة الخامسة) ٥٣
ما سر انتحاره...؟
(الحدوتة السادسة) ٦٣
أبنائي الأعزاء
(الحدوتة السابعة) ٧١
حكاية زُهرة
(الحدوتة الثامنة) ٧٩
قرار صعب
(الحدوتة التاسعة) ٩٧
عم جمال بتاع الفول
(الحدوتة العاشرة) ١٠٣
هل أسير على الدرب..؟
على الدرب... ١١١
المحتويات ١٢٥